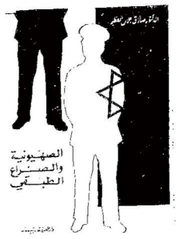

الصهيونية والصراع الطبقي

● اشتداد التنافس ، داخل صفوف كل بورجوازية من البورجوازيات الاوروبية ، مع الضغط الشديد على البورجوازية الصغيرة بسبب نزعة الرأسمال الاحتكاري للتوسع المستمر على حسابها . ونتيجة لذلك دخلت البورجوازية الصغيرة صراعا مريرا ضد كافة اخصامها للمحافظة على حصتها من السوق الداخلية . وبما ان الطابع التجاري والحرفي كان يطغى على النشاط الاقتصادي اليهودي ، اصبح اليهود هم العدو اللدود لهذه الطبقة واصبح العداء للسامية جزءا جوهريا من ايديولوجيتها السائدة .

● وعلى الصعيدين الاجتماعي والايديولوجي ، اخذت هذه التطورات مظهر اشتداد النزعات الشوفونية والعنصرية وتفاقم الحركات المعادية للسامية .

واذا دققنا في طبيعة هذه النتائج ، لوجدنا ان اهتمام البورجوازية اليهودية العليا بالمشروع الصهيوني جاء حتما لاهتمامات البورجوازيات الامبريالية الحاكمة في بلدين مثل بريطانيا وفرنسا . اي انه لم تكن هذه الشريحة من البورجوازية اليهودية تريد الانتقال الى دولة يهودية في فلسطين، او ما شابه ذلك ، بل كان هدفها الاستفادة من خدمة الاهداف الامبريالية العامة ، باعتبار ان مصالحها اصبحت مندمجة بشكل محلي مع مصالح الطبقة الحاكمة في البلد الموجودة فيه .

الحركة الصهيونية

في صيف ١٨٩٧ انعقد المؤتمر الصهيوني العالمي الاول في مدينة « بازل » بسويسرا ، بدعوة من هرتزل ، وبرئاسته ، واختتم المؤتمر اعماله ، باعلان برنامج « بازل » الشهير والذي نص رسميا على نية الحركة الصهيونية في استعمار فلسطين واستيطانها، وكان المؤتمر نتيجة طبيعية لوصول الصهيونية اليهودية الى مرحلة نضجها في الربع الاخير من القرن الماضي ، اذ حدد لها برنامجا سياسيا استعماريا واضحا ، واعطاها الادوات التنظيمية والادارية والمالية لتنفيذه ، كما جعلها قادرة على استيعاب التيارات القومية اليهودية المختلفة التي برزت في صفوف الطبقات الوسطى اليهودية في اوروبا الغربية والشرقية ، بعبارة اخرى اطلق المؤتمر الصهيونية كحركة قومية منظمة وفاعلة في وسطها الاوروبي .

وقد عملت الحركة الصهيونية على ثلاث جبهات رئيسية :

● الجبهة الطبقية :

كانت البورجوازية اليهودية تأمل بتحقيق فوائد كبيرة من تنفيذ المشروع الصهيوني على نطاق استعماري واسع تتعدى مجرد الحفاظ على مركزها الراهن وممتلكاتها الحاضرة ، اما اهم الفوائد الاضافية فهي :

اولا : التهدئة الطبقية على الصعيد الاجتماعي باخراج « عناصر الشغب » اليهودية من اوروبا ، كي تتمكن هذه البورجوازية من اخذ مكانها المناسب وبشكل طبيعي وبدون ضوضاء في صفوف الطبقات الحاكمة الاوروبية .

ثانيا : تخلص البورجوازية اليهودية في اوروبا الغربية من اليهود الاتين باعداد كبيرة من روسيا واوروبا الشرقية وما يخلقه هؤلاء من مشكلات اجتماعية ومنافسة شديدة تنعكس اثارها السلبية على الطبقات الوسطى بسرعة .

ثالثا : الفوائد والارباح التي كان الرأسمال اليهودي الكبير يتطلع الى تحقيقها من خلال تنفيذ مشروع الاستعمار الاستيطاني في فلسطين على نطاق واسع .

من ذلك يتبين لنا ان البورجوازية اليهودية بشكل عام، كانت تريد تحقيق التهدئة الطبقية وتوطيد السلم الاجتماعي في الدول الرأسمالية من جهة ، وجني الفوائد والارباح من جهة ثانية من خلال تنفيذ المشروع الصهيوني . ولتحقيق هذه الاهداف لم تر هذه الطبقة بديلا عن محاولة تهجير البروليتاريين واشباه البروليتاريين اليهود الى فلسطين واستخدامهم هناك في تحويل البلد الى ارض « اللبن والعسل » التي كان الرأسمال اليهودي يحلم بالتفرد بها لنفسه !

● الجبهة العنصرية :

نظر هرتزل الى معاداة السامية ليس من حيث هي قوة غاشمة ينبغي الكفاح ضدها واستئصال مسبباتها بل من حيث هي حل نموذجي لمشكلة الصهيونية ، وذلك من حيث امكان استغلالها كمحرك اساسي في تحويل الجماهير اليهودية باتجاه خدمة المصالح الطبقية والامبريالية الكامنة وراء تنفيذ المشروع الصهيوني في فلسطين .

● جبهة الامبريالية والاستعمار الاستيطاني :

كرس هرتزل القسم الاكبر من نشاطه العملي في سلسلة من المفاوضات الملاحقة مع المشرفين على الامبراطوريات القائمة يومها ، وعلى رأسها الامبراطورية العثمانية ، حيث تفاوض مع الصدر الاعظم ، وقابل السلطان عبد الحميد ، كما تفاوض مع حكام الامبراطورية الالمانية والتي كانت قيد التوسع يومها مثل عم الملك غليوم الثاني ، دوق بادن الكبير ، والملك نفسه ووزير الدولة « برنهارد فون بالو » ، كما قابل ملك ايطاليا فيكتور عمانوئيل والبابا بيوس العاشر ، وكل من بلهيفه وويته في روسيا .. وغيرهم . اما المحور المركزي الذي كانت تدور حوله كل هذه المفاوضات والاتصالات فكان التعاون العملي بين الحركة الصهيونية وحكام الامبراطورية المعنية على دعم الاستعمار الاستيطاني في فلسطين من اجل :

— تخليص البلد المعني من « عناصر الشغب » اليهودية و « تفريغ » الفائض السكاني من فقراء اليهود في المستعمرة .

— تعزيز قدرة الدولة الامبريالية المعنية على مواجهة منافسيها من ناحية ، وتوسيع سيطرتها وتثبيتها في وجه الحركات الوطنية التحررية للشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة من ناحية ثانية .

وقد تمثلت الدعائم الاساسية للسياسة التي اتبعتها الحركة الصهيونية في استيلائها على فلسطين في :

١ — نزع ملكيتها من اصحابها بشكل لا يسمح لسكان البلاد الافادة من الارض التي تنتقل ملكيتها الى المنظمة الصهيونية او استيعابها بصورة من الصور .

٢ — منع سكان البلاد من العمل في المشاريع التي يقيمها المستوطنون او على الارض التي يمتلكونها .

٣ — اجلاء شعب البلاد عن وطنه لافساح المجال امام المستوطنين اليهود الاتين من الخارج .

٤ — بناء قوة مسلحة متفوقة على ما هو متوفر عند الشعب الذي ازمعوا على استعمار بلاده .

وقد شهدت فلسطين تحولين هامين في فترة الحرب العالمية الثانية :

اولا : النمو الكبير والسريع الذي طرا على اقتصاد البلاد ، وخاصة القطاع اليهودي نتيجة حاجات المجهود الحربي الانكليزي في المنطقة واضطراره للاعتماد على الموارد والمنتجات المحلية. ووجد مجتمع المستوطنين في الايام الاخيرة للحرب ، انه اصبح يمتلك اقتصادا ديناميكيا ناميا ، وجيشا منظما اكتسب خبرات عسكرية كبيرة خلال الحرب ، وتنظيمات سياسية فعالة ، بالاضافة الى ايديولوجية شوفونية متشددة ، مما جعله يتحرك بسرعة باتجاه المطالبة بالاستقلال السياسي عن الدولة الامبريالية الام .

ثانيا : بروز الولايات المتحدة كقاعدة للمعسكر الامبريالي ، وحلولها محل بريطانيا في هذا الدور ، مما ادى الى تراجع التحالف الصهيوني — البريطاني الكلاسيكي لصالح التحالف الصهيوني الاميركي الجديد الذي اخذ يؤكد نفسه بقوة على الصعيدين المحلي الفلسطيني والعالمي .

وعلى الرغم من قرار التقسيم الذي صدر عن هيئة الامم المتحدة ، لم يكن في نية مجتمع المستوطنين التقيد بحدوده ، بل كان كل شيء يشير الى عكس ذلك ، اي الى الاستعداد للاستيلاء على اكبر مساحة ممكنة من فلسطين بعد اجلاء السكان عنها، بدأ المستوطنون حملتهم العسكرية لتحقيق هذا الغرض ، وقد تم لهم ذلك بفضل ارتهان الزعامات العربية في تلك الفترة للمصالح الامبريالية البريطانية في المنطقة .

●

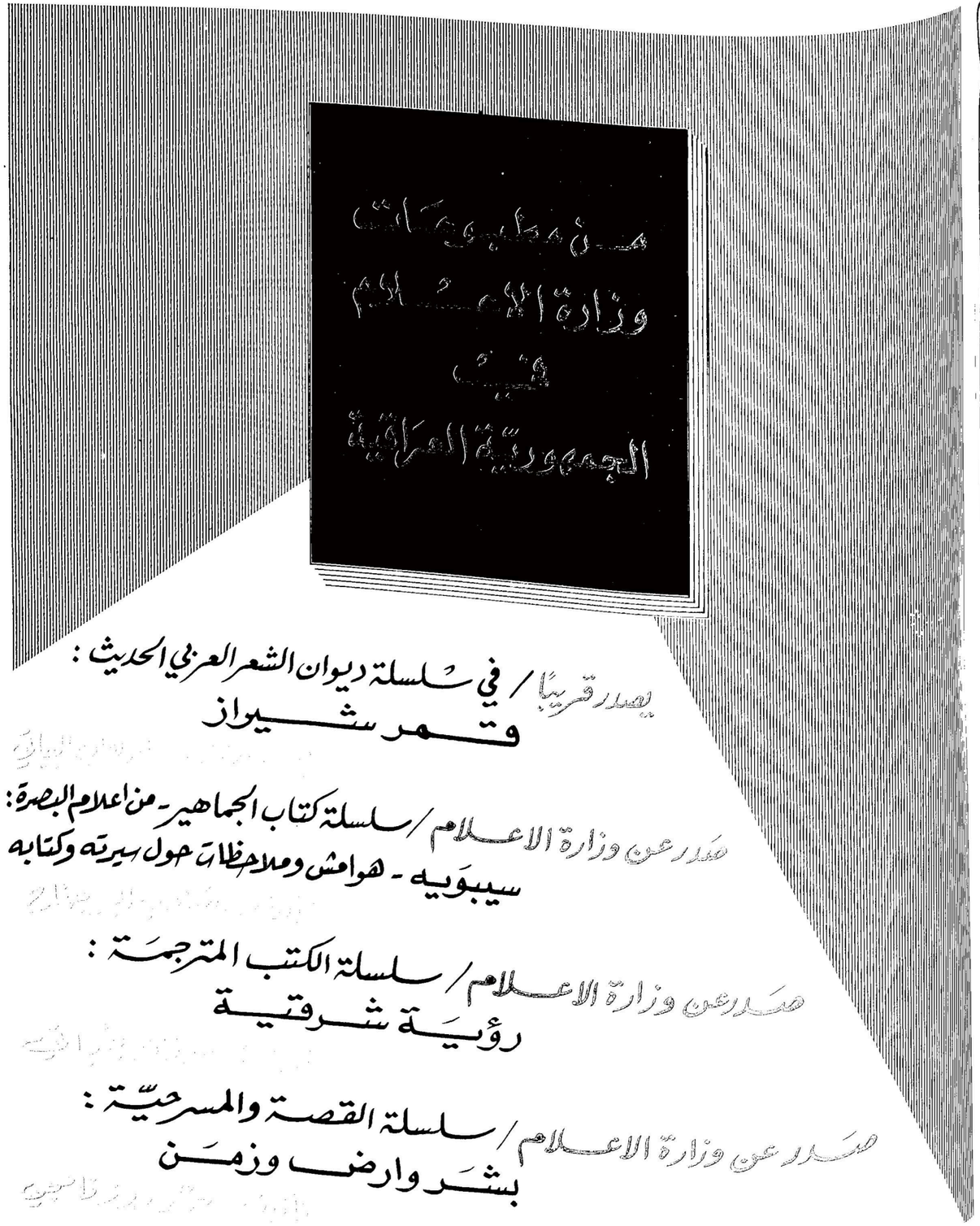

يصدر قريبا / في سلسلة ديوان الشعر العربي الحديث :
قمر شيراز

صدر عن وزارة الاعلام / سلسلة كتاب الجماهير - من اعلام البصرة:
سيبويه - هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه

صدر عن وزارة الاعلام / سلسلة الكتب المترجمة :
رؤية شرقية

صدر عن وزارة الاعلام / سلسلة القصة والمسرحية :
بشر وارض وزمن